

## نظرية الصراع الحضاري في الفكر الاستراتيجي الأمريكي: تحليل ونقد لدراسة برنارد لويس "جذور الغضب الإسلامي"

<sup>1</sup> د/ طيبي محمد بلهاشي الأمين؛ أستاذ محاضر "أ"، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

<sup>2</sup> إبراهيم بن عمار؛ طالب دكتوراه، علوم سياسية، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

تاريخ الإستلام: 2018/10/27 تاريخ القبول: 2019/02/27 تاريخ النشر: 2019/03/17

### ملخص:

ما طرحه برنارد لويس في دراسته "جذور الغضب الإسلامي"، هو عقيدة جديدة تنبئية تساهم في رسم الكيفية التي يجب أن تتعاطى بها الولايات المتحدة الأمريكية -بداية من التسعينيات- مع العالمين العربي والإسلامي، تحلل فيه الواقع وتستشرف مستقبل أمريكا. يمثل "الإسلام الأصولي"، حسب لويس، أحد أبرز التهديدات التي ستواجهها الحضارة الغربية مستقبلا. إنه الصراع الحضاري.

**الكلمات المفتاحية:** الصراع الحضاري؛ الفكر الاستراتيجي الأمريكي.

### Abstract :

The introduction of Bernard Lewis in his study "The Roots of Islamic Fury" is a new doctrine that predicts how the U.S.A. – starting from the 90s - should deal with the Arab and Islamic worlds. According to Lewis, "fundamentalist Islam" is one of the most significant threats to Western civilization in the future. It is a civilizational conflict.

**Keywords:** Civilizational Conflict; American Strategic Thought.

## مقدمة :

في مرحلة انتهى معها الصراع الأيديولوجي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي الذي انحار عام 1990، جاءت الضرورة إلى إيجاد عدو بديل ونقيض، ولكنه ليس أيديولوجي هذه المرة، وإنما نقيض ثقافي حضاري، يمكن للغرب -على اختلافه- ان يُعرّف نفسه في مقابله، إنه الإسلام باعتباره "منافس قديم ضد تراثنا اليهودي المسيحي" كما عبر عنه برنارد لويس. هذا ما يساهم بشكل أو بآخر إلى تنحية الصراعات الذاتية بين كيانات الغرب المختلفة وداخل أمريكا تحديداً، والاصطفاف في تيار واحد يعلن كراهيته للإسلام والعرب على حد سواء، كونه العدو المشترك المستقبلي.

جاء مع هذا الوضع الجديد أصوات تدعو إلى الصراع الحضاري -باعتباره الملمح الأساسي لحالة العلاقات الراهنة- في كتابات العديد من الباحثين الأمريكيين، وكان في مقدمتهم المستشرق برنارد لويس الذي حدد طبيعة العلاقة الحالية والمستقبلية بين الغرب والإسلام باعتبارها صراع حضارات -لا صراع مصالح اقتصادية كما ذهب جون ميشيل كاتربونالي القول به في كتابه (صدام الامبراطوريات) عام 2014- وذلك في دراسته "جذور الغضب الاسلامي" عام 1990، المنشورة في مجلة (Atlantic Monthly). لقد سبق طرح لويس كتاب صمويل هنتنغتون (صراع الحضارات) عام 1996، الذي لقي انتشاراً واسعاً ونقداً بين مؤيد ومعارض، حيث جعل الأخير من مقالة لويس مرجعاً فكرياً لكتابه.

تثير هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات: لماذا العلاقة بين الغرب والإسلام في طابع الصراع وليس التوافق حسب طرح لويس؟ وما هي ملامح هذا الطابع؟ ومن هو الطرف السبب في اذكاء الصراع؟ وهل من سبيل لإنهاء هذا الصراع وإحلال السلام والتعايش؟ وما موقع كل طرف في تحقيق ذلك؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال تحليل العناصر التالية :

**أولاً:** التعرف بالمستشرق برنارد لويس

**ثانياً:** السياق التاريخي لكتابة برنارد لويس لمقاله

**ثالثاً:** مقالة "جذور الغضب الاسلامي": دراسة تحليلية نقدية

**أولاً:** التعرف بالمستشرق "برنارد لويس"

"برنارد لويس" من مواليد 1916، تلقى تعليمه في لندن حتى حصل على البكالوريوس في الأدب من قسم التاريخ بجامعة لندن، ثم التحق بجامعة باريس معهد الدراسات السامية وحصل منها على دبلوم الدراسات السامية، ثم عاد إلى جامعة لندن لينال درجة الدكتوراه عن رسالته في الأصول الإسماعيلية تحت إشراف المستشرق هملتون جب.

التحق بالجيش البريطاني في أثناء الحرب العالمية الثانية وأعيّره خدماته إلى وزارة الخارجية، ثم عاد إلى الجامعة ليدرس حتى وصل إلى منصب رئيس قسم التاريخ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن من 1957م حتى عام 1974م، حيث انتقل بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليحصل على الجنسية الأمريكية عام 1982م، عمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات الأمريكية، وحضر الكثير من الندوات والمؤتمرات حول الدراسات العربية والإسلامية. له العديد من المؤلفات من أشهرها : العرب في التاريخ ، الإسلام في التاريخ ، اللغة السياسية في الإسلام، أصول الإسماعيلية، اللون والعرق في الإسلام أو اللون والعرق في الشرق الأوسط، الحشاشون أول فرقة ثورية في الإسلام، الساميون واللاساميون، الغرب والشرق الأوسط، مستقبل الشرق الأوسط، ما الخطأ، أزمة الاسلام، صدام الحضارات: المسيحيون والمسلمون واليهود في عصر الاكتشافات.

هذا إضافة إلى عدد كبير من البحوث التي نشرت في الدوريات المتخصصة ومنها

على سبيل المثال، لا الحصر: الشيوعية والإسلام"، نشرت في مجلة شؤون دولية؛ "الديموقراطية في الشرق الأوسط"، نشرت في مجلة شؤون الشرق الأوسط؛ "الدولة والفرد في المجتمع الإسلامي"، بحث ألقى في ندوة في فرنسا ونشر مترجماً في مجلة الثقافة الجزائرية.

إن كتابات لويس الكثيرة حول الشرق الإسلامي مكنته من تبوأ مكانة علمية بارزة، والتي حققها بصفته مؤرخاً مختصاً في التاريخ الإسلامي، وبصفته خبير في شؤون العالم الإسلامي (الشرق الأوسط). هذا، وإن توصياته تصل إلى أعلى المستويات لدى قادة صنع القرار السياسي في الغرب وفي أمريكا بشكل خاص. كما أن لويس يتميز بغزارة الإنتاج والنشاط المتواصل في نشر أفكاره.

### ثانياً: السياق التاريخي لكتابة برنارد لويس لمقاله

ما طرحه لويس في دراسته "جذور الغضب الإسلامي"، ومن بعده هنتغتون في كتابه (صدام الحضارات) هو عقيدة جديدة تنبئية لتعاطي الولايات المتحدة الأمريكية مع العالم والعالم الإسلامي بخاصة، التي خرجت منتصرة وبقوة من صراعها الأيديولوجي أمام الاتحاد السوفياتي بداية التسعينيات، تحلل فيه الواقع وتستشرف مستقبل أمريكا في ظل مستجدات عصر نهاية القرن وبداية القرن الجديد. وعليه جاءت الضرورة لرسم ملامح صورة ما بعد الاتحاد السوفياتي في إطار نظام دولي جديد تلعب فيه الولايات المتحدة دور الزعامة والقيادة الأحادية.

كتابة الدراسة جاءت كذلك كرد فعل على حالة المأساة التي شهدتها علاقة أمريكا مع إيران الشاه التي كانت تضمن مصالح الشركات النفطية الأمريكية. مع الثورة عام 1979 ووصول نظام إسلامي للسلطة، أصبحت مصالح هذه الشركات مهددة، وفقدت أرباحاً كبيرة كانت تجنيها إثر استثماراتها النفطية في إيران. هذا، إضافة إلى فقدان حليف استراتيجي

بمنطقة الشرق الأوسط، وظهور عدو استراتيجي سيهدد حلفاءها العرب والكيان الصهيوني المحتل بفلسطين.

كانت نهاية الثمانينيات وبداية التسعينات هي أيضا بداية تنامي أيديولوجية المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية وهم من دعاة استخدام القوة في العلاقات الدولية خاصة ضد الأعداء الأيديولوجيين في الشرق الأوسط، وهؤلاء منحازون للكيان الصهيوني المحتل، وبرنارد لويس واحد منهم.

### ثالثا: مقالة "جذور الغضب الاسلامي" : دراسة تحليلية نقدية

#### 1- التوجه العام للدراسة :

حسب لويس فإن الغضب الإسلامي الذي مصدره ذاتي داخلي ومرجعه الدين، سيقود إلى تنمية الكراهية والتعصب ضد حضارة الغرب خاصة ضد أمريكا -باعتبارها وريثتها الشرعية، والذي سينعكس في سلوكيات عدائية تقود إلى حالة صراع بين حضارتين، وهو استمرار في الأصل لصراع قديم، صراع يكون المسلمون هم من يشعل شرارته ويغذيه. ما يجعل الغرب ينقاد مكرها الى مجابهة هذا المنافس بردة فعل من نفس طبيعة الفعل غير العقلاني للمسلمين.

#### 2- مقولات وحجج الدراسة:

المقولة الاولى: عداوة العالم الاسلامي للغرب ليس بسبب سياسات الغرب.

يرى لويس أن سياسات الغرب وفي مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية، لا يمكن اعتبارها سببا وجيها لحالة العداة المستشري في المجتمعات الإسلامية تجاه الحضارة الغربية .

ويحتج لويس على ذلك بالتالي:

إن فرنسا قد خرجت من الجزائر، وغادرت بريطانيا مصر، وشركات النفط الغربية غادرت الآبار النفطية، وكذلك الشاه المستغرب غادر إيران. رغم أن هذه السياسات قد هجرت والمشاكل قد حلت، فإن حفيظة الأصوليين والمتطرفين ضد الغرب وأصدقائه بقيت ونمت<sup>1</sup>.

إذا سلمنا جدلاً بما قدمه لويس على أن الاستعمار قد انتهى- وإن كان قد خلفه استعمار بشكل جديد يوائم المرحلة الجديدة- فهل بعد كل ما فعله الغرب المستعمر يمكن للمستعمر أن ينسى جراحه. فمن جهة، أليس العداوة والكراهية شيء في النفس البشرية ثابت جراء الاعتداءات والمظالم التي تعانيها، خاصة إذا كان الاعتداء يشمل الجانب المعنوي أكثر منه المادي لأي أمة من الأمم. ومن جهة أخرى، فإن استبدال هذا الشعور السلبي بآخر إيجابي يحتاج وقتاً ونية صادقة من المعتدي بعد الاعتراف والتعويض المادي والمعنوي، وهذا ما لم يیده الغرب الاستعماري. فرنسا مثلاً، لم تعترف إلى حد الآن عن جرائمها في الجزائر.

كما يحتج لويس أيضاً بأنه رغم التواجد الأمريكي السلمي التعاوني والوثيق في تحالفات مع العديد من دول العالم الإسلامي، ورغم أن أمريكا بعكس تواجدها العسكري والاستشاري في كوبا والفيتنام، فهي لا تتواجد في العالم الإسلامي بهذه الصفة. إلا أنه توجد في ليبيا وإيران ولبنان صورة الكراهية التي تزعج وتفزع، تذهب أحياناً مذهبا أبعد من العداوة إلى السياسات بل تجاه الرفض للحضارة الغربية بحد ذاتها<sup>2</sup>.

نلاحظ هنا إقرار لويس بالتواجد الأمريكي العسكري والاستشاري، أي التدخل

<sup>1</sup> Lewis Bernard, "The Roots of Muslim Rage", the Atlantic, Sep 1990, p.52.

<sup>2</sup> Ibid, p. 48.

بالقوة المباشرة وغير المباشرة لتحقيق مصالحها في العديد من مناطق العالم. وهنا من ناحية أخرى، يتضح من طرح لويس هو أن أمريكا كغيرها من دول العالم الغربي استطاعت أن تكبح جماح التعصب ضد الآخرين، فمابال أمريكا تعادي الفيتنام وتتدخل بالقوة، فهل في العلمانية تعصب أيضا، وهل هو من نفس نوع التعصب الديني؟ أم أشد وأبغض منه؟

ويؤكد لويس أن الاتحاد السوفياتي قد ساهم بسياساته في دعم إسرائيل [الكيان الصهيوني المحتل] الناشئة ولم يقابل بمشاعر العداوة والغضب، وفي المقابل سارعت أمريكا في التنديد بالتدخل الثلاثي 1956 على مصر وساهمت في تأمين الانسحاب للقوات المتحالفة، ورغم هذا فقد تعاونت دول مثل مصر وسوريا والعراق مع الاتحاد السوفياتي وليس مع أمريكا<sup>1</sup>.

نقول أن هذه تبقى تكتيكات فرضتها الظروف المحلية والاقليمية والدولية، في سياقات تحقيق كل منها لمصلحه، وليست مسألة مبادئ، فالتاريخ يشهد بالدعم الأمريكي غير المشروط للكيان الصهيوني المحتل في فلسطين منذ نشأته وإلى حين كتابة لويس دراسته، وما بعدها أيضا. ومن جهة أخرى، لا مصر ولا العراق ولا سوريا كانت بها حكومات إسلامية بل حكومات علمانية كانت تقيم تحالفاتها على أسس إيديولوجية ومصلحية خاصة.

كما يرى لويس أيضا أنه من الأسباب التي يعتمد عليها بعضهم في تفسير العداوة لأمريكا، هو دعمها للنظم السياسية العربية القائمة، والتي يعتبرها الراديكاليون والمحافظين بأنها فاسدة واستبدادية. ومع أن لويس يُقر بمعقولية الاتهام، لكنه اتهام لا يكفي خاصة لأن دعم مثل هذه النظم كان محدودًا في المدى والفاعلية، كما تبين مع الشاة<sup>2</sup>.

ولكن، إذا كان لويس يُقر بالدعم الأمريكي للشاه، فهل كان-مثلا- يرجو لويس

<sup>1</sup>Ibid, p. 52.

<sup>2</sup>Ibid, p. 53.

من الايرانيين أن يغيروا مشاعرهم ضد أمريكا والتي كانت المدعم الرئيسي للشاه ونظامه المستبد تحقيقا لأغراضه الاقتصادية ونهم شركات النفط الاستغلالية، بعدما تم الإطاحة به بالقوة واكتشاف تحالفات هونتأثير الإمبريالية الأمريكية في دعم سلطانه ضمانا لمصالحها في البلد، وأن يبادروا ببيدين مفتوحتين لاحتضان أمريكا بعد إسقاط الشاه.

وبعد تضييف لويس للحجج التي يعتبرها البعض بأنها سبب كراهية وعداء المسلمين لأمريكا، يلمح لويس إلى أن هناك "ثمة شيء ذا صلة، أعمق من هذه الشكاوى المحددة"... "شيء أعمق من شأنه أن يحيل كل خلاف إلى مشكلة، ويجعل كل مشكلة لا يمكن حلها"<sup>1</sup>. وكما نلاحظ فإن حجج لويس ماهي إلا دعوى باطلة، لاتدعم افتراضه القائل بأن سياسات الغرب ليست السبب في الكراهية. نقول إنها أحد الأسباب لوجيهة والأساسية لهذه الكراهية وهي الشيء الأعمق الذي هو من أهم الأسباب وليس السبب الوحيد طبعا.

**المقولة الثانية:** الإسلام ذو طبيعة عسكرية وعلاقة الصراع بينه وبين الغرب تاريخية، وحالة الغضب الحالية سببها ضعفه مقابل قوة الغرب.

يؤكد لويس، إذا كان للإسلام ما يحسب له، أنه جسد رحابة الأخوة وسعة التسامح ما جعل منه حضارة أغنت بإنجازاتها العالم بأسره، فإن له في المقابل ما يحسب عليه، حيث أوحى لأتباعه بشيء من الكراهية والعنف الموجه ضد الغرب. وهذا يقود إلى القول بأن هذه الأمور يعتقد أنها شرب الغريزة (الفطرة) وأن أولئك الذين يروجونها هم "أعداء الله" وأعداء الله هم أهل الشر<sup>2</sup>.

ويرى لويس أيضا أن محمد [ﷺ] كان رجل دين ودولة، على عكس غيره من مؤسسي الأديان الأخرى. في حربه لأجل الإسلام يحارب محمد وأتباعه من يقاتل ضد الله

<sup>1</sup>Ibid, p. 53.

<sup>2</sup>Ibid, p. 48.

باعتبارهم "أعداء الله". كما أن التقسيم الإسلامي للعالم غير مشابه لتقسيمات الشعوب الأخرى، العالم في وجهة النظر الكلاسيكية للمسلمين في شريعتهم منقسم إلى قسمين، دار الإسلام، حيث تسود الشريعة والعقيدة، والباقي المعروف بدار الحرب، ومهمة المسلمين أن يجلبوها في النهاية إلى الإسلام.

يضيف لويس أن الإسلام ومنذ نشأته كان يرى نفسه منارة النور والحق وما دونه برابرة كفار يسعى الإسلام لتنويرهم، كان العالم المسيحي أكبر تحدي بالنسبة للإسلام، باعتباره منافسا حقيقيا، دين عالمي منافس. لقد استمر الصراع بين هذه النظم المتنافسة أربعة عشر قرنا بدأ مع قدوم الإسلام في القرن السابع ميلادي، واستمر تقريبا إلى الوقت الحاضر، في سلسلة من الهجوم والهجوم المضاد، الجهاد والحروب الصليبية، الفتوحات واسترداد الفتوحات. كان الإسلام لمدة ألف عام في تقدم والعالم المسيحي في تراجع وتحت التهديد، إلى أن ترجحت الكفة مع انهيار العالم المسيحي وبروز قوة الغرب وبداية الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في آسيا وإفريقيا، وأصبح الإسلام في موقع ضعف ودفاع.

بعد هذا التقديم التاريخي النظري يعدد لويس مراحل وحالات متعددة من الهزيمة، حيث يجادل بأنها هي السبب في الغضب الإسلامي ضد الغرب باعتباره العدو الذي مضى على الصراع معه ألف عام، وأن حالة الغضب تستمد قوتها من الاعتقادات والولاءات القديمة .

—خسارة السيطرة على العالم لصالح القوة التوسعية لروسيا والغرب.  
—إضعاف سلطته في بلاده عن طريق غزو الأفكار والقوانين الأجنبية، وطرق المعيشة وحكام أو مستوطنين أجنبيا، وحق الانتخاب لأناس غير مسلمين من أهل البلد.  
—التحدي لسيادته في عقر داره (نساء متحررات وأولاد متمردين)<sup>1</sup>.

<sup>1</sup>Ibid, p. 49.

**المقولة الثالثة:** بعض السياسات مثل التعصب للذكورة والعنصرية والاستعمار التي يتهم بها النقاد الغربيين حضارتهم هي ادعاءات باطلة.

يؤكد لويس أن الرفض للغرب وأمريكا لا يقتصر على العالم الإسلامي، بل انتقل إلى داخل أمريكا نفسها، من أولئك الذين أصبحوا يتكلمون بالنيابة عن العالم الثالث [يقصد اليسار]، وقدموا تفسيرات وتسويغات لرفض قيم الحضارة الغربية. ومما يتهم به الغرب، التعصب للذكورة، والعنصرية، والاستعمار. إن لويس في رده على هذه الاتهامات يبتدأ من الاقرار بالذنب باعتباره الخيار المتاح، وحجته في ذلك هي "أننا مذنبون، ليس لأننا أمريكيون، ولا حتى أوروبيون، ببساطة، من منطق بشريتنا، وأننا أعضاء في العنصر البشري". ويضيف، نحن في الغرب لسنا المذنبين الوحيدين في أي من هذه الخطايا، بل نحن في بعضها بعيدون عن أن نكون أسوء من فعل، فمعاملة النساء في الغرب لسوءها إلا أنها أحسن من قانون تعدد الزوجات، والسرايا<sup>1</sup> في الحضارة الإسلامية.

ثم يتساءل لويس هل العنصرية هي الشكوى؟ إذا كان الرق اليوم مرفوض عالمياً، باعتباره إساءة ضد الإنسانية، ففي ذاكرة الناس كان الرق قد مورس وتم الدفاع عنه، وأسس ونظمه القانون الإلهي، ويعتبر الغرب هو أول من ألغاه.

ثم يتساءل هل الاستعمار (الإمبريالية) هي الشكوى؟ إذا كان توسع أوروبا الغربية نوع من الجنحة الأخلاقية، فإن التوسعات الأخرى ليست بريئة من هذا الوصم.

وإثر دحض لويس لحجج غيره حول ممارسات الغرب السلبية، الذكورة والعنصرية والاستعمار، يضيف بأن هذه السياسات الغربية يتبع فيها الغرب سنة عامة عند البشر على مر آلاف السنين في التاريخ المسجل. إنما يميز الغرب هو اعترافه وتسميته ومحاولته، ليس تماماً

<sup>1</sup>Ibid, p. 53.

من دون نجاح، علاج هذه الأمراض التاريخية<sup>1</sup>. إذن، لاجدوى من هذه الاتهامات الواهية، حسب لويس.

سنمثل حجة لويس هنا ونرد عليها بالتالي: شخصين وقفا أمام القاضي، أحدهما متهم والآخر الضحية. يسأل القاضي الضحية عن طبيعة الاعتداء الذي تعرض له من قبل المتهم، فيقول الضحية أن المتهم أهمل عليه ضرباً بالعصا وسبب له جروحاً بليغة. ينتقل القاضي بالسؤال إلى المتهم، ما قولك في اتهامات الضحية، هل فعلاً اقترفت الفعل. يرد المتهم معترفاً بأنه ارتكب الفعل واعتدى على الضحية ضرباً بالعصا، لكنه يواصل قائلاً، إن فعل الضرب بأنواعه والقتل وغيرها هي أفعال يرتكبها البشر، وقد ارتكبت هذا الفعل من كوني بشراً، وليس كوني فلاناً، كما أنني ولست أول من يرتكب مثل هذا الفعل، بل هنالك من البشر من ارتكبه قبلي، بل أرتكب ما هو أشنع مما ارتكبت، فقد استعمل الكثير السلاح الأبيض—مثلاً—واستعملت أنا العصي فقط. فهل يقبل القاضي هنا حجته أم يردها عليه؟

**المقولة الرابعة:** اعتبار الاستعمار سبب لعداء العالم الإسلامي الغرب، هو سبب غير وجيه.

يرى لويس أن اعتبار الاستعمار سبباً رئيسياً لغضب وعداء العالم الإسلامي تجاه الغرب هو سبب غير وجيه. ويحتج على ذلك بمناقشة دلالات كلمة الاستعمار، إن دلالات الكلمة تختلف بين معناها عن المسلمين وبين ما يعنيه بها النقاد الغربيون، فمعناها عند المسلمين يتم في ضوء ربطها بالتبشير وهنا تبرز الأهمية الدينية على نحو واضح.

وإذا كان يرى الغربيون في معنى الاستعمار سيطرة مجموعة بشرية على أخرى، فهي عند "المسلمين الأصوليين" توزيع الأدوار في العلاقة، والذي هو شر بحق ومن غير المقبول سيطرة الكفار على المؤمنين الحقيقيين. أن يحكم المؤمنون [المسلمين] الكفار [خاصة

<sup>1</sup>Ibid, p. 54.

الغرب] فهو أمر طبيعي، أما العكس فلا يصح، لأنه يقود إلى الفساد في الدين والأخلاق والمجتمع. وأعطى لويس أمثلة لما يحصل في إريتريا وكشمير الهندية وكوسوفو اليوغسلافية<sup>1</sup>.

وهنا نتساءل، ما الفرق في ربط دلالات كلمة الاستعمار بأبعادها القيمة على اعتبار أن الاستعمار في أساسه تبشيراً، أو ربطها بأبعادها المادية على اعتبار أنه استغلال إقتصادي ونهب لثروات المستعمرات. هذا، أو ليس الاستعمار في حقيقته كان قد اشتمل البعدين معاً؟ أو ليس الاستعمار سيطرة جماعة على أخرى واستغلالها مادياً مع السعي الخيث إلى إلغاءها ثقافياً، لأن التحصيل المادي مرتبط بضرب المعنوي والقيمي الثقافي لأي أمة من الأمم حتى تكتمل السيطرة ويحسن الاستغلال؟.

ومما يجعل حسب طرح لويس حجة الاستعمار واهية أيضاً وغير قادرة على تفسير العداء الإسلامي للغرب الأمريكي، هو أنه حتى ولو يتم تعريف الاستعمار تعريفاً ضيقاً ومحددًا: وهو غزو وسيطرة غير المسلمين للبلاد الإسلامية. وإذا كان الاستعمار بهذا المعنى فلماذا هو موجه ضد الغرب الأوروبي والأمريكي، والذي تخل عن أملاكه في بلاد المسلمين، أقوى بكثير منه ضد الاتحاد السوفياتي، الذي لا يزال يحكم ملايين عديدة من الرعايا المسلمين ويسيطر على العديد منهم؟

ويتساءل لويس، فلماذا العداء ضد أمريكا؟ وهي التي لم تحكم أي بلد إسلامي بالقوة والتوسع الإمبريالي. يرى لويس مثلاً أنه حتى إن عمليات القمع الحديثة للثورات الإسلامية في جنوب، ووسط الجمهوريات الآسيوية للاتحاد السوفياتي للجمهوريات الاشتراكية (USSR) لم تستهدفها إلا كلمات معتدلة من الاعتراض من قبل الدول العربية، مشفوعة بتنازل عن أيّ رغبة في التدخل في ما يدعى على نحو غريب الشؤون الداخلية للاتحاد السوفياتي للجمهوريات الاشتراكية، وبطلب حفظ النظام، والهدوء على الحدود.

<sup>1</sup>Ibid, p. 56.

سبب واحد لهذا الكبح المفاجئ للنفس، إلى حد ما، يوجد في طبيعة الأحداث في أذربيجان السوفياتية. من الواضح أن الإسلام عنصر مهم، وقابل للازدیاد في شعور الأذربيجاني بالهوية. لكن الإسلام في الوقت الحاضر ليس عنصراً مهيماً، وإشتراك الحركة الأذربيجانية معاً لغيره الوطنية التحررية لأوروبا، أكثر من إشتراكها مع الأصولية الإسلامية. مثل هذه الحركة لا تهيج عطف حكّام الجمهوريات الإسلامية. إنها قد تنبّههم إلى الخطر، لأن الدولة القومية الديمقراطية الحقيقية التي يديرها سكان أذربيجان السوفياتية يمكن أن يكون لها نوع من جاذبية، قوية على أبناء جلدتهم إلى الجنوب مباشرة في أذربيجان الإيرانية.

وسبب آخر لقلّة الإكتراث النسبي لخمسين مليون مسلم أو أكثر تحت الحكم السوفياتي قد يكون حساب المخاطرة والمصلحة. فالاتحاد السوفياتي مع الحدود الشمالية لتركيا يقع قرب إيران وأفغانستان. أما أمريكا وحتى أوروبا الغربية فهما بعيدان جداً<sup>1</sup>.

إذا افترضنا أن العداة سببه عقديّ دينيّ - كما يدعي لويس - وليس بسبب سياسات الغرب، فإنما يحاول لويس الاحتجاج به ليؤكد أن الكراهية والرفض للغرب وحضارته هي من صميم المعتقد الإسلامي، خاصة الغرب الأمريكي والأوروبي، دون الاتحاد السوفياتي، لربما سيُحسب على لويس. لو كان الرفض والغضب سببه دينيّ في الأساس لكان ضد الغرب المسيحي والشرق الملحد على حد سواء، وكان ضد الملاحدة الروس من باب أولى، فلماذا هو ضد الغرب الأمريكي دون السوفييت الملحد. يمكننا القول أنه قد يكون السبب في أحد جوانبه غير ديني، لأن الدين الإسلامي أكثر عداة للإلحاد منه للديانات التوحيدية (اليهودية والمسيحية)، أما إذا كان السبب ماديّ فإنه يكون العداة ضد أمريكا، بسبب سياساتها الظاهرة والخفية في المنطقة، خاصة الدعم غير المشروط للكيان الصهيوني المحتل في فلسطين، منه إلى الاتحاد السوفياتي من باب أولى، والذي كان ملاذ وحليفاً لإيران والدول العلمانية

<sup>1</sup>Ibid, p. 56.

العربية مثل مصر وسوريا والعراق في تحالفاتها أثناء الحرب الباردة. فقد جعلت هذه الحرب من المنطقة أحد أم كان تصفية حساباتها ضد بعضها البعض خاصة لأهمية المنطقة الاستراتيجي (الجيوبولتيك) وغناها بالموارد (القوة الاقتصادية)، واللذين مثلا محددين لحسم الصراع لصالح المسيطر عليهما .

**المقولة الخامسة:** إنفصل الدين عن الدولة هو السبيل إلى نبذ التعصب، وقد تمكن الغرب من الفصل ولم يتمكن العالم الإسلامي من ذلك، ما أبقى التعصب لصيقا بالأخير .

يقول لويس في تصدير مقالته أن فصل الدين عن السياسة فكرة مسيحية، فالمسيحيون مأمورون في كتابهم المقدس بأن يعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، الفصل يعتمد الغرب اليوم. إن طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة تحدد طبيعة المشاكل والحلول الممكنة، فإذا كان الغرب يعتمد الفصل بين الدين والسياسة والعالم الإسلامي لايفعل ذلك، وعليه فإن طبيعة المشاكل والحلول ستختلف اختلافا جذريا وجوهريا<sup>1</sup>. وهذا ما يوحي بأن الالتقاء بين الطرفين عند نقطة وسطه وأمر من الصعوبة بما كان.

ثم يعود لويس في آخر محور في مقالته والمعنون "صراع الحضارات"، إلى التأكيد على أن أصول العلمانية في الغرب توجد في: تعاليم المسيحية والتجارب، والتي أنشأت مؤسساتين، الكنيسة والدولة. فصل الدين عن السياسة هو أحد السبل التي مكنت الغرب من التخلص من التعصب والعداء الذي هو سبب محاربة الأديان لبعضها البعض باسم "الله".

حسب لويس يكون الغرب قد تمكن بعد صراع مرير في العالم المسيحي-مرحلة ما بعد العصور الوسطى-من تجاوز السلطة الدينية التي كانت تملك آليات قصرية وتستهمل العنف ضد الأديان الأخرى. عن طريق الفصل بين الدين والسياسة مكن الغرب لنفسه نبذ

<sup>1</sup>Ibid, p. 48.

أسباب التعصب والعنف. أما الدين الإسلامي والذي هو من أكبر الأديان التي ضاهت – ولا تزال – المسيحية، ورغم الاختلافات داخل الطوائف الإسلامية، إلا أنه لم يتم الفصل داخله بين الدين والدولة، وذلك أنه لم يمر بالتجارب كما في الغرب التي تقوده إلى حاجة الفصل<sup>1</sup>.

ما لم يقله لويس صراحة – وهو الذي نستنتجه من كلامه – هو أن التعصب لا يزال في الإسلام، والسبب أنه عجز عن فعل الفصل بين الدين والسياسة، الذي يعتبر هذا الفعل حسب لويس الآلية المثلى لنبذ التعصب والعنف ضد الآخر المغاير دينياً وثقافياً. فإذا كانت العلاقة بين المسيحية والإسلام عبر التاريخ فعل ورد فعل فإن المرحلة الراهنة، والتي تخلصت فيها الدول القومية الأوروبية وأمريكا العلمانية – بالرغم ما تطرحه العلمانية في الغرب خاصة أمريكا من إشكاليات – من التعصب الأعمى للدين، فإن احتمالية الفعل العدائي الآن ستكون من قبل الإسلام، لأنه – ببساطة – لم يحقق الفصل بين الدين والسياسة والذي هو أساس التسامح ونبذ العنف وإلغاء التعصب.

وهنا نتساءل، هل فعلاً تمكن الغرب بعد نجاحه في الفصل بين الدين والسياسة من التخلص من التعصب الأعمى المدمر كما يدعي لويس؟. إذا كان الغرب قد تخلص من التعصب والعنف، باعتماد العلمانية، فما بال الدول القومية العلمانية في أوروبا تخوض حربين طاحنتين أتت على الأخضر واليابس، وإذا كانت الدول العلمانية قد أنهت التعصب ضد الأديان الأخرى كما زعم لويس، أما كان من الأولى بها أن تتجنبه في تعاملاتها مع أبناء الحضارة الواحد. وما بال اليهودية واليهود الذين اضطهدوا من قبل نظام هتلر العلماني؟

**المقولة السادسة:** العداوة لأمريكا ظهرت مع قادة الإحياء الديني الذين عرفوا أعداءهم باسم "أعداء الله".

<sup>1</sup>Ibid, p. 56.

يرى لويس أن المعرفة بأمريكا في العالم الإسلامي في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانت ضئيلة، لكن مرحلة ما بعد الحرب و بروز صناعة النفط وتطورات ما بعد الحرب جاءت بالعديد من الأمريكيين إلى الأراضي الإسلامية، أعداد من المسلمين أيضا سافر إلى أمريكا. بفضل الإعلام ووسائل الاتصال انتشرت الثقافة الأمريكية وتوطدت التجارة أيضا في مرحلة ما بعد الحرب، الأمر الذي جعل الكثير يرى أن أمريكا قدمت الحرية، والعدل والفرص، كما قدمت الثروة والقوة والنجاح، فلم تكن هذه الخصال تعتبر إثما أو جرائم.

وفي هذه المرحلة أيضا، كانت استجابة المسلمين للحضارة الغربية بالإعجاب والتقليد، وكان ذلك نتيجة الوعي بالضعف والفقر والتخلف في العالم الإسلامي، مقابل تفوق وتقدم الغرب. فالعديد من المصلحين والمجددين حاولوا الأخذ بالنموذج الغربي سياسيا واقتصاديا وحتى ثقافيا ليلحقوا بالركب ويُعدّوا أمجادهم الضائعة<sup>1</sup>.

لكن للأسف فشلوا، كما يؤكد لويس. ولم يذكر السبب، لأنه سوف يخرج عند البحث عن الأسباب الوجيهة لهذا الفشل، وهذا ما لا يتسق مع ما يود طرحه وتبريره. ف نموذج التحديث في إيران مثلا عهد الشاه لم يكن نموذجيا بقدر ما كان مظلالا يتلاعب بمقاييس كمية مخادعة على حساب الحقائق الموضوعية الكارثية، لأن تحالف أمريكا مع شاه إيران كان يصب في خدمة الطرفين الشاه وحاشيته من جهة، والشركات النفطية الأمريكية وأصحاب الصناعات العسكرية المستثمرة من جهة أخرى، دون الشعوب بالمقهورة.

يضيف لويس مؤكدا أنه وبعد مرحلة الإعجاب جاء بعد ذلك التغير الكبير، عندما بحث قادة الإحياء الديني الواسع الانتشار وعرفوا أعدائهم على أنهم "أعداء الله". وفجأة أضحت أمريكا العدو الأكبر ومثال الشر بالنسبة للمسلمين. لماذا؟ يتساءل لويس<sup>2</sup>.

<sup>1</sup>Ibid, p. 59.

<sup>2</sup>Ibid, p. 50.

يرى لويس أنه وفي وقتنا الحاضر تبدلت الحالة من الاعجاب إلى حالة من العداوة والرفض بين كثير من المسلمين، وسببها الشعور بالهوان: الوعي المتزايد بين وراث الحضارة القديمة، المغرورة، المسيطرة لوقت طويل والتي تم قهرها من قبل أولئك الذين عدتهم المسلمون أدنى درجة [وهذا ادعاء زائف]، هذا من ناحية، وهذه الحالة، من ناحية أخرى، بسبب الأحداث في العالم الغربي نفسه، نتيجة حربين مدمرتين قسمت الحضارة الغربية إلى أجزاء، والتي قام فيها المحاربون بالدعاية ضخمة في العالم الإسلامي وفي أماكن أخرى ضد بعضهم البعض<sup>1</sup>.

ومن أسباب زيادة هذا العداء أيضا حسب لويس، هو التأثيرات القادمة من أوروبا والمضادة للعادات والأعراف الغربية: رؤى الفلسفة النازية الألمانية، الرؤية السوفياتية الماركسية، "مذهب العالم الثالث" الذي انبثق من أوروبا وبالتحديد في فرنسا. ورغم أن جميعها قد زود التعبير الفكري ضد أمريكا، إلا أنها لم تسببها، فهي لا تمكننا من تفسير سبب عداوة العالم الإسلامي لأمريكا<sup>2</sup>.

فقد وجدت رسائل القوى المتعارضة الغربية آذان صاغية لادعاءات بعضها البعض في العالم الإسلامي، والتي منها أن العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب في أساسها استغلال اقتصادي وقهر سياسي ضد شعوب المنطقة، وهذا بالطبع ساهم - كنتيجة لذلك - في انقياد العديد من جموع العالم الإسلامي إلى أن ينصت السمع إلى الأصوات القائلة بأن البديل في النهج الإسلامي، وأن يتخلصوا من بدع الوثنيين جانبا. وبما أن الولايات المتحدة هي الوريث الشرعي للحضارة الغربية الأوروبية، فإنها قد ورثت الشكاوى الناتجة وأصبحت مركز الكراهية. ويقدم لويس مثالين، في إسلام آباد عام 1979 حينما هاجم الغوغاء على السفارة الأمريكية، وعام 1989 في إسلام آباد أيضا وهذه المرة هجو محشود على مركز خدمة المعلومات للولايات

<sup>1</sup>Ibid, p. 59.

<sup>2</sup>Ibid, p. 52.

المتحدة<sup>1</sup>.

**المقولة السابعة:** الغرب لا يمكنه فعل شيء تجاه الحالة الصراعية التي سببها العالم الاسلامي، وإنهاء هذه الحالة متوقف على المسلمين أنفسهم إذا ماتمكنا من نبذ التعصب والعنف المتجذر في ثقافتهم الدينية.

يصل لويس في ختام دراسته إلى نتيجة مفادها أنه "لابد أن يكون قد صار واضحا بأننا نواجه حالة وحركة تتجاوز بعيدا مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تتبعها، هذا ليس أقل من صراع حضارات، وردة فعل غير عقلانية، لكنها بالتأكد تاريخية، لمنافس قديم ضد تراثنا اليهودي النصراني، وحاضرنا الدنيوي والتوسع الواسع لانتشار كليهما. من المهم جدا من ناحيتنا أنه لا ينبغي أن نستفز إلى ردة فعل تاريخية ولا عقلانية على نحو مساوي ضد هذا المنافس."

كما يحاول لويس التأكيد أن الأصولية ليست النمط الإسلامي الوحيد، هنا كأنماط أخرى أكثر تسامحا وانفتاحا [والتي تنتهج العلمانية بأن تجعل من الدين الإسلامي ممارسة شخصية لا ارتباط له بالسلطة والنظام السياسي]، ونحن نأمل أن تسود على حساب الأصولية، لكن قبل أن يُحسَمَ هذا الأمر سيكون هناك صراع قاسي، لن نستطيع نحن الغرب أن نفعل فيه شيء، أو ربما نفعل اليسير، بل إن مجرد المحاولة قد تعود بالضرر، لأن هذه الامور، على المسلمين أن يحسموها فيما بينهم، وفي غضون ذلك، من المحتم علينا أن نحتاط بشدة مع جميع الأطراف، لتجنب خطر عهد جديد من الحروب الدينية، التابعة من استفحال الخلافات وإحياء التعصبات الدينية<sup>2</sup>.

<sup>1</sup>Ibid, p. 59.

<sup>2</sup> Ibid, p. 60.

### المعالم الرئيسية لنظرية لويس في الصراع الحضاري :

-حسب رؤية لويس فإن طبيعة الصراع الحالي والمستقبلي بين الشرق الإسلامي والغرب هي صراع ذو طابع حضاري.

-تعتبر الحضارة الإسلامية هي من أشعل فتيل هذا الصراع وتغذيته، باعتبارها فعل غير عقلائي.

- إن الغضب الإسلامي مرده ذاتي، ولدته عقيدة الشعور بالهوان جراء ما تعيشه الحضارة الإسلامية من تقهقر وضعف.

-إن عجز المسلمين عن الفصل بين الدين والسياسة، باعتبار الدين هو أساس التعصب والعنف، فإنها ستعجز عن كبح جماحهما في تعاملاتها مع الحضارة الغربية، الغريم التاريخي. وهي الآن في مرحلة حاسمة تحاول من خلالها استعادة أمجادها والثأر من خصمها البريء، ولن يقودها ذلك إلا إلى خوض غمار الحرب الدينية.

-إن تميز الحضارة الغربية بعقيدة الفصل بين الدين والسياسة أهلها إلى نبذ كل مسببات التعصب والعنف، مما يجعل منها أكثر مسالمةً وفتحةً ورغبةً في التعايش مع الحضارات الأخرى في إطار المعطى الانساني؛

-وفي هذه الحالة ربما ستجد نفسها مجبرة -من محاولات أي خصم غير عقلائي يتربص بها ويعاديها- إلى رد فعل غير العقلائي من نفس جنس فعل الفاعل والذي تمثله محاولات الإسلام والمسلمون.

### خاتمة:

بعد تحليلنا لمحتوى دراسة لويس "جذور الغضب الإسلامي" ورَدْنَا على العديد من

الحجج التي ساقها لتبرير مقولاتها، نخلص بالقول إلى:

أولاً، إذا افترضنا جدلاً أن ما نعيشه اليوم هو حالة من الصراع على أساس ثقافي

وحضاري، فإن المسبب في انبعاث هذا النوع من الصراعات ليس المسلمون كما يدعي لويس، وإنما الغرب وفي مقدمته الولايات المتحدة. مايقوم به المسلمون والعرب هو في حقيقته رد فعل معقول- وإن كنا لا نسوق لأي عمل عنيف أو إرهابي كما هو مشاهد اليوم، بل بالأحرى التنبيه إلى الأخذ في الاعتبار المظالم التي تقود إلى مثل هذه التصرفات، والتي لا يعتمدها لويس في تفسيراته- إذا ماقورن بالفعل الذي أحدثه -ولازال- الغرب الأوروبي والأمريكي، فقرون من الاحتلال والاستعمار الأوروبي المدمر في صيغته التقليدية، ثم في صيغته المتجددة بعد مرحلة الاستقلال الوهمي -ليس في صيغتها القانونية وإنما في صيغتها العملية في الواقع- والتي تجسد معاملة الولايات الأمريكية في المنطقة العربية والكثير من مناطق العالم. هذا إضافة إلى الدعم غير المشروط من قبل الغرب -بعد الجهود التي بذلها في إقامة الدولة الصهيونية وإحقيق الاعتراف الدولي بها عام 1948- وخاصة أمريكا للاحتلال الصهيوني في فلسطين.

ثانيا، إن ما نعيشه اليوم في حقيقة الأمر ليس صراعا حضاريا أو ثقافيا في الأساس، سببه الحضارة الإسلامية كما يزعم برنارد لويس، إنه صراع الإمبرياليين الجدد في أمريكا من أجل السيطرة على ثروات العالم ومقدراته، إنه الرأسمالي في أمريكا، الذي يسعى -مأثرا ومتحالفا مع رجل السياسة والاكاديميين والاعلام- إلى تحقيق المشروع الامبراطوري الاستعماري الجديد.